"موجز": تحديات نظرية وعملية في وجه الحاضر

"Flash": Défis théoriques et pratiques pour aujourd'hui

- الفوضى والتمييز
- "الاستدامة"، قيمة
- من أجل بحث آثاري في المخاطر
- الفقر
- الفساد وضحاياه
- المحاولات الأولى للتأطير السياسي والأخلاقي للعولمة: قانون الأمم، الحرب العادلة وحق التدخل، تاريخ
- التطابق
- منظورات ثقافية حول القانون: بخصوص تقارير تقويم الأداء التي يصدرها البنك الدولي
- أي قانون جزائي للأعمال سيكون لفرنسا

الفصل الرابع [١٠١]

الفوضى والتمييز [١]
Le chaos et la distinction

١- شرعة أخلاقية للتمييز
1. Une éthique de la distinction

إن سفر التكوين الذي هو أول أسفار التوراة، وهو السفر الذي قامت عليه التأملات الفلسفية والسياسية والدينية لجانب كبير من البشرية، هو نتاج عمل أدبي وفلسفي استمر خلال عدد من الأجيال المتتابعة. لذلك نجده مرتبطاً بقصص متنوعة تتعلق بنشأة الكون، مثل قصص بابل، أو الإله مردوخ الذي خلق العالم عندما انتصر على تيامات، أي على قوى الفوضى، حسب قصة الخلق إينوما إليش[٢].

---

(١) كان منطلق هذا التحليل تفكيراً انصب على مفهوم تضارب المصالح، وكتب ليكون ضمن تقرير نشاطات عام ٢٠٠٤م للمكتب المركزي للحماية من الفساد. نشر في الصحف الرسمية، بطلب من كلود ماتون Claude Mathon الذي كان حينئذٍ مديراً للمكتب، وهو اليوم محام عام في محكمة التمييز. وأشكر كل الشكر لكلود ماتون دعوته للمشاركة في أعمال المكتب المركزي لمحاربة الفساد (SCPC).

(٢) مردوخ من آلهة بلاد الرافدين وهو إله شاب انتصر على تيمات، وهو أحد آلهة قصة الخلق إينوما إليش. وتيمات إلهة من آلهة بلاد الرافدين أيضاً. وتجسد في الأسطورة البابلية المياه المالحة في المحيط حيث تسود الفوضى. وتحكي قصة الإينوما إليش التي كتبت قبل أكثر أو أقل من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد أن ابني تيمات وزوجها إبسو أصبحا يزعجانهما فقررا التخلص من سلالتهما. ولما علم إيا Ea بنواياهما عمد إلى قتل إبسو في أثناء نومه، فتملك تيمات غضب شديد لمقتل زوجها فقررت الثأر له، وخلقت جيشاً من =

وتخبرنا **التوراة** في بداية **سفر التكوين** أنه لا حياة، ولا إمكانية لوجود عالم بلا **تمييز وانفصال**. إن خلق العالم هو بفعل كلام إلهي يميز ويسمّي. إن فعل الخلق الإلهي في **مصر القديمة** هو أيضاً بفعل كلام. **يقول الله...**[٣] لقد كان الكون قبل أن يصدر الكلام الإلهي، وقبل أن تتردد في أرجاء العالم أصداء الصوت الإلهي، بلا حياة، تنتشر فيه الظلمات، يغمره ماء كوني. إذنْ، إن الأصل هو **انعدام الحياة**، **والعدم**، **والفراغ**، **والغمر**، وهذا تعريف **الفوضى**.

والفوضى عند **الإغريق** هي بالتحديد تجسيد للفراغ البدئي، الذي يسبق الخلق، عندما لم يكن النظام قد فرض على عناصر الكون. ويتولد من **الفوضى** Chaos كلمة Erèbe التي تعني الظلمة، والليل، ثم خلق النهار والـ Ether التي تعني **السماء العليا**، الجلد الصافي المتألق. بذلك يجري الإعراب عن قناعة مفادها أن **الفوضى** تتمثل في عدم القدرة على التمييز في الظلمة، وأن تبدد تلك الظلمة يساعد على التحول إلى نظام أكثر ضبطاً، وقدرةً على تنظيم تلك الفوضى. إن **النهار** و**السماء** المنيرة يسمحان من الآن فصاعداً برؤية واضحة، وتمييز مؤهل لتنظيم الأشياء والكائنات والعالم.

إن عملية **الخلق التوراتي** تتشكل عبر **التمييز** و**الانفصال**[٤]. والضوء هو أول المخلوقات، الضوء المرئي ولكن أيضاً ضوء الحياة. **والجَلَد** هي ثاني المخلوقات

= المخلوقات المشوهة يقوده زوجها الجديد **كينجو** الذي هو ابنها أيضاً. ثم هزمها الإله الشاب **مردوخ** الذي جاء إلى العالم من لجج بحر المياه العذبة. وقد قسم جسده إلى قسمين؛ خلق من صدره ورأسه السموات، ومن رجليه وأعضائه السفلية الأرض. ومنه تولد الماء الذي تأتي به السحب، ومن دموعه تشكل **دجلة** و**الفرات**. وكلمة tehom= لجة العبرية في أول **سفر التكوين** مشتقة من تيمات. [المترجم]

(٣) كل الاقتباسات من **التوراة** مأخوذة من **الترجمة التامة للتوراة**، نشرة دار سيرف، ١٩٨٠م.
La traduction Œcuminique de la Bible, Éd. Du Cerf, 1980.

(٤) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة الأنبياء: الآية ٣٠)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة هود: الآية ٧) [المترجم].

وتتمثل بعنصر مسطح أو مقبب يحتوي المياه العليا. ويتم الخلق في الحالين كلتيهما انطلاقاً من العدم[٥]:

ليكن نور (السفر الأول، التكوين، الآية ٣)، وقال الله ليكن جَلَد في وسط المياه... ودعا الله الجلد سماء (السفر الأول، التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٦).

ذلك الخلق من العدم الذي يتلوه مباشرة بفعل الانفصال الذي يعبّر عنه بفعل التسمية:

وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً (السفر الأول، التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٤). فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء (السفر الأول، التكوين، الإصحاح الأول، الآيتان ٧ – ٨).

وخلقت الأرض حينئذٍ بفصلها عن البحر:

وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة! وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً.؛ ومجتمع المياه دعاه بحاراً. (السفر الأول، التكوين، الإصحاح الأول، الآيتان ٩ – ١٠).

وبذلك تتكون المخلوقات كلها عبر الانفصال والتمييز سواء تعلق الأمر بأفلاك النهار والليل، أو بالكواكب أو بالحيوانات، "كل حسب نوعه".

وحدث خلق الإنسان حسب الكلام المقدس بعد خلق العالم، وقد خلقه الله كما جاء في التوراة:

---

(٥) روى البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض. وعن أبي رزين قال: قلت يا رسول الله: أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال صلى الله عليه وسلم: كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء. رواه الترمذي وحسنه. قال أبو عبيد: العماء في كلام العرب السحاب .وسئل ابن عباس: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح. [المترجم]

وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. (سفر التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٢٦)

ذلك هو تعريف الإنسان بالنسبة إلى الله، إنه انفصال يحمل في طياته توافقاً أيضاً، فالمصطلح "شبهنا" يخفف ما يوحي به مصطلح "صورة" من دلالة مادية. وإن ما تجدر ملاحظته أن الله سمى النهار والليل والسماء والأرض والبحر، ولم يسمِّ الحيوانات المسخرة للإنسان، شأنها شأن النباتات المسخرة له. وقد وصف الله، كما جاء في التوراة، فعل الخلق هذا، عبر **الانفصال والتمييز**، بأنه حسن جداً:

ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً. (سفر التكوين، الإصحاح الأول، الآية ٣١)

إن فعل الرؤية حينئذٍ يعني الإدراك فوراً على البعد، والإدراك فوراً عبر البعد. إنه، وهذا من المفارقات، استخدام الانفصال بوصفه وسيلة للفورية.

وفي قصة الخلق الثانية التي تلي السابقة مباشرة، غرس الرب الإله جنة في عدن، ووضع هناك الإنسان الذي جبله من تراب الأرض مما يعطي الإنسان الذي ينبغي أن يزرع الأرض جذوراً كونية؛ وفي وسط الجنة أنبت الرب شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر، أي شجرة المعرفة التي تسمح بأن يكون الإنسان سعيداً أو حزينا، شجرة إدراك السمة الكونية التي تسمح بالحكم على كل شيء. من كل الأشجار كان يمكن للإنسان أن يأكل إلا هذه الأخيرة. وأطلق الإنسان مظهراً قدرته الإدراكية، وسلطته، أسماء على الحيوانات باختلاف أنواعها. إن إخضاع العالم يمر عبر وساطة الكلام التي تميز وتفصل، كما أنه يمر عبر وساطة العمل الذي يحول. إذنْ، إن العالم الذي وضع فيه الإنسان يسمه الانفصال بميسمه، والفرق بين الأشجار المباحة والأشجار المحرمة، بين الأرض المقفرة والأرض المزروعة، كما يسمه النقص بميسمه أيضاً. يكتسب الإنسان وجوده عبر الانفصال. ثم أوقع الرب الإله سباتاً على الإنسان فنام، وخلق المرأة من ضلع من أضلاعه، فالمرأة مخلوقة إذنْ عبر انفصال جزء

من جسد الإنسان نفسه. وعندما سماها الإنسان أطلق عليها تسمية تعلن أنها قريبة منه، ومنفصلة عنه امرأة ishsha في حين أنه هو نفسه رجل ish. وإن هذه التسمية تشكل أيضاً أول كلام دشن به الإنسان نطقه:

فقال الإنسان (سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآية ٢٣).

وعند هذا الموضع ترد في النص التوراتي قصة الخطيئة الأصلية. وتندرج الخطيئة الأصلية في استمرارية وقائع هيمنة القدرة الإلهية على العالم.

إن الخطيئة الأصلية هي بالتحديد قصة محاولة إنسانية غير محسوبة لعدم الانفصال، ولعدم التمييز، في حين أن خلق العالم، بوصفه خلقاً فعالاً وحيوياً هو أثر من آثار الكلام الإلهي في التمييز والانفصال. وعندما وعدتهما الحية فقالت: "**وتكونان كالله**" أكلت المرأة وأكل الرجل الثمرة المحرمة، فأخلا بالوصية الإلهية، وَسَعَيَا إلى عدم التميز من الله. إن قصة الإخلال هذه ترمي إلى إثبات أن هناك أصلاً أولياً للخير، وأن الشر تضرب جذوره جزئياً في حرية إخلال زوج بشري بوصية إلهية، باعتبار أن الحية سبق لها أن أفسدت الكلام الإلهي. ولما وعى الرجل والمرأة الاختلاف الجنسي الذي اتضح في مظهر الأجساد أرادا إنكار ذلك بتغطية جسديهما بالثياب.. وعندما اكتشفا محدودية غاياتهما اختبآ من وجه الرب. وبذلك أزال الخطأ التقاطع بين **الاختلاف والمشابهة**؛ فالانفصال أضحى من الآن فصاعداً ثقيل الوطأة، ينظر إليه على أنه تناقض مؤلم وجناية مرفوضة على الذات. وإن محاولات الشيطان الثلاث إغراء المسيح **عليه السلام** في بداية حياته العامة (**إنجيل لوقا**، الإصحاح ٤، الآيات ١ - ١٣) تؤكد أن الخطأ [١٠٣] يكمن في إرادة الرجوع إلى حالة عدم التميز: يعرض الشيطان على المسيح الاقتصاد في تأمل العمل للحصول على الخبز، والاقتصاد في تأمل الزمن للحصول على كل شيء فوراً، والاقتصاد في تأمل الموت والإخفاق للظفر بالقوة المطلقة. والحال أن العالم يتحدد بالزمن والفضاء والإخفاق والموت، وبعدم التقاطع مع الأصل الإلهي. وإنه لمن المناسب أن يبني الإنسان علاقاته بالكون وبالآخرين في

إطار التعرف على ما يعتريه من نقص، أو اختلافات أو مظاهر الانفصال، أو التناقضات التي تتكون منها الذات.

٢- أوروبا في بدء التاريخ والتفكير

2. Europe au principe de l'histoire et de la pensée

يخبرنا **الإغريق** القدماء أن بداية تاريخ البشر، أي تاريخ **الإغريق**، بدأ باختطاف، باقتلاع عبر الفصل، عبر التمييز. **فأوروبا**[٦] الجميلة اختطفها من بيئتها الأصلية **زيوس** المتنكر بصورة ثور أبيض، وعبر بها مضيق **الدردنيل**. وسمح له عبور البحر باكتشاف شاطئ جديد، كان مجهولاً. فالانفصال هو في مبدأ تطور تاريخ البشر وتفكيرهم. إن **أوروبا** الجميلة عبر الانفصال وعبر الانتقال، تقول مجازياً أكثر مما تقوله في واقعها المادي، وتقول مجازياً أكثر مما نعتقد أننا نعرف. إن التقاء الحرف في جانبه المادي مع جسد المرأة المفصولة عن أصلها يبدع في الواقع عالماً جديداً، **أوروبا**. وبذلك ابتدع **الإغريق** تاريخ الفلسفة. لقد ولدت **الهوية الأوروبية** بفضل المجاز، باعتبار أن الفكر الفلسفي **الإغريقي** يشتغل معتمداً على كلمات المجازات التي تفصل المعنى عما وضع له وتنتزعه منه. وقد أشارت المؤرخة والفيلسوفة **نيكول لورو** Nicole loraux إلى أن مفاهيم الجسد،

---

(٦) أوروبا أو (يوربا) هي ابنة الملك ايجينور ملك فينيقيا، كانت رائعة الجمال والحسن، وقع في حبها زيوس كبير الآلهة في الميثولوجيا الأغريقية لكنه لم يستطع أن يصل إليها، وفي إحدى المرات التي كانت تلعب فيها على الشاطئ مع صديقاتها تنكر في صورة ثور أبيض أليف واقترب منها، فأخذت أوروبا تداعبه وتلاعبه، ولما استيقنت من أنه أليف وغير مفترس قررت أن تمتطيه ولما ركبته أخذ يمشي الهوينى إلى أن وصل إلى البحر وحينما اقترب من الماء شق طريقه في الماء بسرعة، وأخذت تصرخ وتنادي على أقرانها لكن بلا جدوى، وحينما وصل زيوس بها إلى الشاطئ الآخر (والذي سمي على اسمها فيما بعد)، بنى بها، وأنجبت منه، ثم أرسل والدها أخاها قدموس للبحث عنها لكنه أيضاً لما وصل إلى الشاطئ الآخر أخذ في البحث هو وجنوده، ثم قرر أن يستقر، فبنى مدينة وتزوج وأنجب وعمر أولاده ونسله قارة أوروبا التي سميت على اسم ابنة ملك فينيقيا المختطفة. [المترجم]

والاحتكاك، والكتابة مضمنة في الخطاب **الأفلاطوني** لتجعل الروح والفصل البات بين الروح والجسد، واللغة، تتقن الحيلة التي تسند إلى الروح مظهراً خاصاً بها بوصفه أكثر مظاهرها التصاقاً بها، شرط أن تضع كل هذا في مجال المجاز؛ وبهذا كان **الإغريق** منفصلين كل الانفصال عن البربر[٧] **وأوروبا** عن بقية العالم.

ولما كان الانفصال في مبدأ التاريخ فهو في مبدأ الكلام أيضاً. ويلاحظ ذلك **موريس بلانشو** Maurice Blanchot " في كتابه **المقابلة التي لا نهاية لها**[٨]، "أن فعل الكلام، شأنه شأن فعل الكتابة، يسلكنا في حركة فصل، ويفضي بنا إلى مخرج متذبذب ومتردد". ويوضح كلامه في موضع آخر فيقول:

هناك كلام، لأنه ليس هناك شيء "مشترك" بين أولئك الذين يعبرون، هناك انفصال مفترض في كل قول حقيقي... وأذكر هنا ما يؤكده أبولون[٩] Apollon **على لسان الشاعر باكشيليد**[١٠] Bacchylide عندما يقول **لأدميت**[١١] Admète: **لست إلا أحد البشر الهالكين؛ لذلك ينبغي أن يغذي عقلك فكرين في آن معاً... ما الذي يطلبه الإله من أدميت؟ ربما ليس أقل من التمرد عليه، والخروج أخيراً من المحفل الإلهي**

---

(٧) نيكول لورو، "عودة المستبعدين"، في عبور الحدود، حول أعمال جاك ديريدا، باريس، منشورات غاليلي، ص١٥١ - ١٥٩.

Nicole leraux, "le retour de l'exclu", dans Le passage des frontiers: autour du travail de Jacques Derrida, Paris, Ed. Galilée, p. 151 - 159.

(٨) موريس بلانشو، **المقابلة التي لا نهاية لها**، باريس، غاليمار، ١٩٦٩م، ص٣٩.

Maurice Blanchot, L' Entretien infini, Paris, Gallimard, 1969, P. 39.

(٩) إله الغناء عند الإغريق القدماء. [المترجم]

(١٠) شاعر غنائي إغريقي، ولد في بداية القرن الخامس قبل الميلاد. ويبدو أنه نفي من مدينة لوليس في جزيرة سيوس، ووجد له ملجأ في سبارطة حيث انتهت حياته. ولا نعرف تاريخاً محدداً لذلك. كان شاعراً بليغاً، بارعاً في صياغة المحفزات الأسطورية. [المترجم]

(١١) يطلق اسم أدميت على شخصيتين في الأساطير اليونانية: ١- **أدميت الأوسيانيد**، رفيق أورسيفون؛ ٢- أدوميت بنت أوريستي التي يتضمن مهرها أحد أعمال هرقل المشهورة. ويبدو أن المقصود هنا الأول. [المترجم]

الذي يظل حبيسه تغريه الوحدة... إنه مدعو لئلا يخشى تأكيد الانقطاع والقطع لكي يستطيع الاقتراح والتعبير – مهمة لا متناهية – كلام هو حقاً كلام جمعي... وبذلك تأتي نحونا النصوص التي لم تصل إلينا كاملة لهراقليطس[١٢] Héaclite، تأتي نحونا لتردعنا أكثر مما تقنعنا[١٣].

وبذلك يكون الأفراد مواطنين استودعوا العقل، مستقلين، وقادرين على قيادة المدينة بأنفسهم، كما كانت الحالة في أثينا وفي مدن أخرى.

[١٠٤] إن الفوضى في نظر **الإغريق** وفي نظر **رجال التوراة** قبلهم، هي اللا تميز الاندماجي الذي لا حدود له، والذي تنصرف عنه الأنظار، والذي يرفض أن يدركه النور المرئي والحيوي الذي يفصل بين النهار والليل، وبين الأشكال. والحال أن البشر،

---

(١٢) **هراقليطس** (٤٧٥ – ٥٣٥ ق.م) ولد **هراقليطس في أفسوس**، ولقد كان ارستقراطيا ينحدر من أسرة نبيلة وشغل في **أفسوس** وظيفة الحاكم. ولقد كان إنسانا متكبراً، ذا طبيعة متعالية. وكان ينظر إلى عامة الشعب باحتقار شديد. وتتسم أقواله بالسخرية: "الحمير تفضل القش على الذهب". "الكلاب تنبح على كل من لا تعرفه" وهذا يعني أن قيمة الذهب نسبية، فهو ثمين في نظر الناس فقط. والإنسان الجاهل يصرخ في وجه الحقيقة التي يجهلها ولا يعرفها. ولقد عرف **هراقليطس** عن أفكاره الفلسفية في بحث مكتوب نثراً. وقد لقب "بالكئيب" أو "الغامض" بسبب صعوبة أسلوبه وغموضه. ومبدأه الفلسفي على خط متعارض مع مبدأ المدرسة **الإيلية**. فهو يقول بمبدأ الصيرورة. Devenir والعالم لا يبقى ثابتاً، بل هو عملية لا تتغير خلالها الأشياء والصفات عشوائياً، بل تنتقل إلى نقيضها: فيغدو البارد حاراً، والحار بارداً، والرطب جافاً، والجاف رطباً. حتى الشمس تتجدد في كل لحظة. فكل شيء في تغير مستمر: "لا يمكن للإنسان أن يستحم في مياه نهر واحد مرتين، ففي المرة الثانية تكون المياه القديمة قد تغيرت، وحلت محلها مياه جديدة". وفي الحياة الإنسانية لا يتخذ تحول الشيء إلى نقيضه شكل انتقال بسيط، بل يتجلى على شكل صراع أو حرب، وهذا الصراع هو "سيد الأشياء جميعاً". في صراع المتضادات تتكشف وحدتها الداخلية. "فالخالدون زائلون، والزائلون خالدون، وحياة البعض موت للآخرين". والأشياء إذ تتحول إلى ضدها، تحتفظ في الوقت ذاته بالأساس المشترك، الذي يجمع الضدية. يقول هراقليطس: "الله نهار وليل، شتاء وصيف، حرب وسلم، شبع وجوع". وهذا يعني أن الله يبقى، برغم كل التحولات، أساساً مشتركاً للمتضادات. [المترجم]

(١٣) **موريس بلانشو**، م.س، ص. ٧٩، ١١٣، ١١٥ – ١١٦.

عندما يكتشفون تعدد أمكنتهم وأزمنتهم، وعندما يفكرون ويتكلمون، ويؤكدون بالضرورة خصوصيتهم، تكون لديهم الرغبة في أن يتبادلوا خصوصياتهم وحقائقهم لأنهم جوهرياً منفصلون. ويوضح إيمانويل ليفيناس[١٤] Emmanuel Lévinas

أن أفلاطون يعرف الفكر كما يلي... إن الكلام الذي يتحدث حقيقة هو الكلام الذي ينتشر عبر تعدد تجارب البشر المفكرين، وتتدرج الفلسفة والشعر في التمييز.

ويقول موريس بلانشو أيضاً:

ينبغي محاولة أن نفكر بالآخر، وأن نتكلم محيلين أنفسنا على الآخر، دون أي مرجعية للأنا، ولا مرجعية للذات[١٥].

ذلك هو شرط تنمية فكرين في آن معاً، وأن يكون الإنسان إنساناً حقاً. الانفصال هو في مبدأ الفكر، في مبدأ الفلسفة، في مبدأ الإنسانية.

٣- توافقات، أزمات مصالح، لا تحيز شخصي

3. Correspondances, conflits d'intérêts, impartialité personelle

كان جيوردانو برنو، الذي عرضنا له فيما سبق، والذي عاش في النصف الثاني من القرن السادس عشر، عبر تأهيله اللاهوتي والفلسفي والصوفي، نموذجاً لعالم إنسانيات عصر النهضة. جر عليه تحرره العقلي، ورفضه المصادقة على المعتقدات السائدة غضب الكنيسة، ومات تحت سيف الجلاد. وهو يذكر في كتيبه المعنون: روابط، الصادر نحو عام ١٥٩٠م بأهمية الانفصال ملاحظاً أنه، وهذا من المفارقات، نشأ، بفضل الانفصال الواقعي للبشر، ولكل عنصر من عناصر الخلق، نظام من التقاطعات بين العالم الأصغر والعالم الأكبر، بين الإنسان ومجموعة الخلق. إن تناسخ المادة نفسها، بأشكال مختلفة وصور مختلفة، واللجوء المستمر لأشكال جديدة من

---

(١٤) إيمانويل ليفيناس، في الإله الذي يخطر في البال، باريس، المكتبة الفلسفية فران، ط٢، ١٩٨٦م، ص٢١٦.
Emmanuel Lévinas, De Dieu qui vient à l'idée, Paris, Librairie Philosophique Vrin, 2e éd. 1986, P. 216.

(١٥) موريس بلانشو، م.س، ص٩٥.

الروابط، ينتج حيوية، وطاقة تشكل الحياة نفسها وتجددها في مختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية والفلسفية والوجدانية.

إنني مرتبط بعدة روابط، أحس بعدة كائنات ترتبط بي... لهذا السبب أو ذاك... فالطبيعة... تنشر روابط الجمال، والبهجة، والطيبة، ومختلف المشاعر الوجدانية التي هي معاكسة لها لتبعثها في أقسام المادة المتعددة بعثاً مميزاً ومنفصلاً(١٦).

إنه لمن المهم أن يفهم الإنسان حق الفهم الروابط التي تربطه بعدد من الأشياء، وأن تكون مميزة تمييزاً واضحاً، ومنفصلة ليحتفظ بحريته في الحكم وباستقلالية قراره. إن الإنسان المسؤول، الذي يتأمل في نفسه، وفي الآخرين، وفي العالم، هو إنسان يعرض عن وهم اللاتميز، وعن وهم أي قوة، إنسان يعرف تمييز أشيائه وتصنيفها، يعرف كيف يحترس من المصالح المختلطة أو الموحدة، يعرف كيف يدير التناقض والتنافس، بين مقتضيات الصداقة ومقتضيات العدالة على سبيل المثال. يهتم **جيوردانو برونو** كل الاهتمام **بتضارب المصالح**، وبإيجاد حل مناسب له. إن كل مجتمع بشري هو مجتمع قادر على أن يطور في آن واحد روابط تناقض وتنافس، وضمن هذا المنظور يؤكد **إيمانويل ليفانس**:

[١٠٥] لن يكون الفكر العاقل إلا جمع أشياء ونظمها في نسق(١٧).

إن مفهوم "**تضارب المصالح**" ينتمي اليوم إلى اللغة القانونية الدولية. والقضاة في بلاد العالم كلها وقاراته كلها مدعوون لإصدار أحكامهم على حالات من تضارب المصالح، أو المنافسات التي تضر بالعلاقات بين البشر وبين الجماعات وبين البلدان. وآية ذلك أن المواءمة الصعبة بين المعايير الثلاثة للشرعة الأخلاقية، المعيار الكوني،

---

(١٦) جيوردانو برونو، روابط، باريس، منشورات ألبا، ٢٠٠١م، ص١١ - ١٢.

Giordano Bruno, Des Liens, Paris, Éditions Alia, 2001, p. 11 - 12.

(١٧) إيمانويل ليفيناس، في الإله الذي يخطر في البال: "الحوار: ضمير الذات وجوار الأخ"، م.س، ص٢١٥.

Emmanuel Lévinas, De Dieu qui vient à l 'idée: "Le dialogue: conscience de soi et proximité du prochain", ouvr. Cit., p. 215.

والخاص، والفردي يمكن أن تجعل المرء غير عارف ولا راغب في معالجة التناقض بين تلك المعايير. لقد وضعت **المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان** يدها على مسائل فصل السلطات، والوظائف، وعدم التوافق، والتحيز. والتوصية التي اعتُمدت في ١١ مايو "أيار" ٢٠٠٠م تشير في مادتها الثامنة:

إلى أنه ينبغي على الموظف العام تجنب أن تتعارض مصالحه الخاصة مع أعماله العامة، ويقع على عاتقه تجنب مثل تلك التعارضات سواء كانت واقعية، أو محتملة، أو ممكنة الظهور بأي شكل كانت[١٨].

وعرّفت **منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين** OCDE تضارب المصالح في الجلسة التاسعة والعشرين للجنة الإدارة العامة التي اجتمعت في باريس في الخامس عشر والسادس عشر من أبريل "نيسان" ٢٠٠٨م كما يلي:

يفترض تضارب المصالح وجود تعارض بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة لشاغل وظيفة عامة، يمتلك فيها هذا الأخير بصفة خاصة مصالح يمكن أن تؤثر بغير وجه حق في الطريقة التي ينجز فيها مستلزماته ومسؤولياته.

إذا كان الضمير المهني الحي للتناقض والتمييز، وللمواءمة العادلة، ولمعايير الشرعة الأخلاقية مؤهلاً ليكون لديه التبصر الذي يسبق الفعل، ولتأمين ممارسة لا متحيزة للوظائف والمسؤوليات، والتوزيع العادل للمميزات والسلطات فإنه يكون في لب مبدأ الثقة بين الأشخاص، وبين الشركات، وبين الزبائن، وبين الدول ومواطنيها، وبين الدول. هذه الثقة هي جوهرية لأنها تؤمن المواءمة بين التنوع والعولمة، ويمكن أن تسهم في تأهيل مجتمع على قدِّ العالم. وبذلك يكون تكوين المعايير مندرجاً في التقاليد الفلسفية والدينية.

---

(١٨) توصية رقم ر(٢٠٠٠) ١٠ للجنة الوزارية (لمجلس أوروبا) للدول الأعضاء حول قواعد سلوك موظفي الوظائف العامة، ١١ مايو "أيار" ٢٠٠٠م، الجلسة ١٠٦، المادة ٨.

٤- فوضى عالمية راهنة

4. Un actuel chaos mondial

إذا كان الفصل والانتزاع هما في مبدأ توطد الكائن البشري وترسخه، في مبدأ كل نزعة إنسانية أو لا إنسانية، فإن الحرية المكتسبة بهذه الطريقة تؤشر أيضاً على حصول التواضع، وقبول التناقض، والاهتمام بالآخر الذي يصنع الجماعات والدول. وتؤكد كل الأديان الكبرى، وكل أرباب الحكمة أن التناقض الذي نجد في قبوله صعوبة وألماً هو شرط سمو الأفراد والمجتمعات وتطهرها. إن أول جريمة قتل في **التوراة** هي جريمة قتل **قابيل** أخاه **هابيل**، **قابيل** الذي لم يقبل الاختلاف، ولم يتحمل التناقض بين الذات وغيرها، ولم يتحمل المسؤولية الناتجة عن ذلك التناقض. ولما قتل **هابيل** **قابيل** فر، وحكم عليه الله بالتيه، والوحدة، والخوف، أما الأخ الثالث فكان اسمه **شيثاً** Seth وهو الذي أسس مجتمع البشر.

[١٠٦] يصوغ **جان جاك روسو** Jean-Jacques Rousseau في بداية كتابه **في العقد الاجتماعي** مسألة المواءمة بين الحرية الشخصية والاهتمام بالآخر كما يلي:

إن إيجاد شكل من أشكال التشارك الذي يدافع عن شخص كل مشارك وأمواله ويحميهما، شكل من التعاون يستطيع عبره أي شخص أن يتحد بالجميع، ولا يخضع مع ذلك إلا لذاته، ويظل حراً كما كان من قبل: تلك هي المشكلة الجوهرية التي يجد العقد الاجتماعي حلها[١٩].

يقول لنا الفيلسوف **جان – بيير دوبوي** Jean - Pierre Dupuy **في كتابه من أجل كارثية واعية**[٢٠]: إننا نمضي باتجاه الكارثة. إن التطورات التي حققها العلم، والتقنية، والصناعة، والاقتصاد، وهي تطورات تمس كل المجتمعات الإنسانية مترافقة بأساطير جديدة، ذات منشأ غربي ترافق تلك التطورات، أسطورة السيطرة على الكون،

---

(١٩) جان – جاك روسو، في العقد الاجتماعي، ١، ٦.

(٢٠) سوي، ٢٠٠٢م.

Jean - Pierre Dupuy, Pour une catastrophisme éclairé, Seuil, 2002.

أسطورة التقدم الكوني، أسطورة السعادة ذات النمط الواحد، وهي تطورات تزعم أنها تسعى إلى مجانسة العالم، ولكنها أدت إلى تعدد الحروب على الكوكب، وإلى تعميم الأزمات. إنها الفوضى حقاً، الفوضى التي لا قاعدة لها ولا قانون، تتعرض الإنسانية لخطر الغوص فيها. كما أشار إلى ذلك **أوريليو بيكيشي وديساكو إيكيدا**[٢١] Daisaku Ikeda:

إن المقاربة الاختزالية التي تتمثل في الاعتماد على سلسلة واحدة من العوامل لحل كل المشكلات التي تطرحها الأزمة المتعددة الأشكال التي نمر بها حالياً هي أقل من أن تكون حلاً للمشكلة نفسها.

إن هذه الفوضى العالمية هي بالتحديد نتيجة الرغبة التي تملكت الفاعلين الإستراتيجيين الغربيين في فرض نظامهم، تلك "الكونية المزعومة للديمقراطية اللبيرالية الغربية بوصفها الشكل النهائي للحكومة البشرية"، إذا استخدمنا مصطلحات الفيلسوف الأمريكي **فوكوياما** الذي جرى ذكره في فصل سابق. إنه النتيجة غير المنكرة لإرادتهم، الواعية أو غير الواعية، لعدم التمييز، **واللاتغاير** الذي ينكر على الآخر حقه في أن يكون مختلفاً، وينكر إمكانية وجود حضارات مختلفة، ومتنازعة افتراضياً، كما لو أن الإنسان الغربي، الذي تناسى تقاليده الثقافية الخاصة لم يع إلى أي حد تصل خطورة ادعائه العودة إلى الحالة التي سبقت الانفصال والتمييز.

ومن هذا المنطلق عندما تهاجم **الولايات المتحدة الأمريكية العراق** فإن إيديولوجية نشر الديمقراطية هي التي تطغى على فعلتها وتسوغها، باسم مواجهة عدو متعدد المظاهر، يرفض أن يعلن ولاءه لنظامها. وقد أطلقوا على هذا العدو اسم **الشر المطلق، الفوضى.**

---

(٢١) مثقف وفيلسوف ورجل دين ياباني، عضو شرف في نادي روما. ولد في طوكيو عام ١٩٢٨م، وألف كتاب: **صرخة من أجل القرن الحادي والعشرين بالاشتراك مع أوريليو بيكيشي**، ومنه الاقتباس الآتي، ونشر الكتاب في باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٨٦م. [المترجم]

Aurelio Peccei et Daisaku Ikeda, Cri pour le XXIe siècle, Paris, PUF, 1986.

إنهم، وهم يحاولون تنظيم العالم تنظيماً عقلانياً بإشرافهم، مثيرو الاضطراب والفوضى اللذين أرادوا محوهما. لقد أصبحت ديمقراطية السوق هي الإنكار المطلق للبعد السياسي، عبر الزعم بأن لدى القائمين على تلك الديمقراطية إرادة ترمي إلى تجانس المجتمعات الإنسانية كلها بقرار يصدرونه. إن ما سبب الفوضى العالمية هو ما يشعر به أولئك، وما شعروا به من نقص في التعرف الفيزيائي والقانوني على الآخر. على الرغم من أن الإحساس بعالم تسوده الفوضى هو إحساس موزع بنسبة متفاوتة من نيودلهي إلى بكين، ومن مكسيكو إلى برازيليا، ومن نيويورك إلى باريس.

ويتحدث إكزافييه روفير Xavier Raufers، الاختصاصي بالتهديدات الإجرامية المعاصرة عن "الحروب الفوضوية، ذات الصبغة الإجرامية، المنتشرة، وغير المنقطعة"، وهي حروب لا ينبغي أن نخلط بينها وبين الحروب التقليدية التي يكون فيها العدو محدداً بدقة، ولا تثير أي حقد شخصي. إن تلك "الحروب الفوضوية" التي ولدتها تلك الإرادة الخاصة في عدم التمييز، وضرّاها عدم أخذ الآخر وقيمه الخاصة في الحسبان، تتواجه فيها كما يقول روفير:

كيانات غير مستقرة ومتحركة ظهرت بعد نهاية الحرب [١٠٧] الباردة في مجال الإرهاب و/أو الجريمة المنظمة التي لا يختص بها بلد واحد: أقليات دينية هامشية إما متطرفة وإما مسالمة، كتل إرهابية غير واضحة المعالم، ميليشيات فاسدة، وعصابات مسلحة مختلفة، مافيا، كارتلات، ... إلخ. وفي بعض الأحيان أيضاً (كما في العراق وأفغانستان) هناك كيانات أخرى (أو الكيانات نفسها) تواجه جيوش العالم المتطور النظامية[٢٢].

(٢٢) إكزافييه روفير، "مناطق مكفهرة، مدن ضخمة، عصبية قبلية: صيغة الفوضى العالمية"، في مجلة آجير، مجلة عامة للإستراتيجية، رقم ٣١، ٢٠٠٧م، ص١٠.

Xavier Raufers, "Zones grises, mégapoles, tribalisme, la formule du chaos mondial", dans Agir, revue générale de strtégie, Ne 31, 2007, p. 10.

كيف يمكن لمن يريد فرض نظامه ولا تميزه، ويجد نفسه مخفقاً في تحقيق طموحاته التسلطية أن يسيطر على الفوضى، وعلى "كياناتها غير المستقرة والمتبدلة" التي لا ينبي يبعثها من مرقدها؟ وإن النتائج التي وصفها **إكزافييه روفير** هي نتائج خطيرة كل الخطورة: فالدول تفقد سلطتها على أرضها، والعالم كله مسرح للمواجهات، وكل فعل يتم على المدى القصير، خصوصاً أنه لم يعد هناك تضارب في المصالح بين الإرهاب والجريمة المنظمة، بل إنهما أصبحا في حالة يحتاج فيها أحدهما الآخر. وأصبحت مجتمعات العالم المتطور هي الضحايا. ويلاحظ **إكزافييه روفير** أيضاً "**أن هذه الفوضى الإجرامية تظهر على الدوام وفي كل مكان عنيفة ومعدية**".

ولكن إذا كانت هذه الفوضى تسمح بتفكيك بنى قديمة متحجرة، ألا يمكن أن تنبثق منها قوى تحول وتجدد؟ هل ينتمي التنوع إلى الماضي فقط؟ ألن يكون المستقبل إلا عولمياً، وذا نمط واحد؟ إذا كان ذلك كذلك فإن الفوضى هي ثمن هذه "البداية الجديدة" التي فكرت فيها الفيلسوفة **حنة أرنت**. كيف سنجد، حينئذٍ، للحاضر "القول" الذي يهب الحياة، القول الذي أشارت التقاليد القديمة إلى آثاره.

٥- في الكرامة المتعلقة بالمشاريع السياسية المشتركة

5. De la dignité particulière aux projets politiques communs

يمكننا في سياق هذا المنظور تحليل الإرساء النموذجي للديمقراطية والجمهورية في **جنوب إفريقيا**، وهو إرساء قام على السمة المشتركة للعقد القائم على سيادة الشعب، ففي حين أن نظام الفصل العنصري كان قد رفض الانفصال والاختلاف مفرغاً المواطنة والأرض البيضاء من أي وجود أسود، مستبدلاً بالجنسية الجنوب إفريقية للسود جنسيات قبلية، وإن الهدف الذي أنشئت من أجله **لجنة الحقيقة والمصالحة** التي تأسست في يوليو "تموز" عام ١٩٩٥م هو الاستماع إلى ما حصل من "تعديات خطيرة على حقوق الإنسان"، وإلى شهادات الضحايا والمجرمين. إنها تعطي حرية الكلام

للضحايا، وتظهر القوة الأخلاقية للضعفاء، القادرين على التعبير عن العنف، مما يعد بادرة "لترميم الكرامة البشرية" للضحايا؛ ثم إنها تتيح بعد ذلك للمجرمين الفرصة ليُظهِروا كَمْ هُم، في قدرتهم على الحديث بحرية عن أفعالهم، يستحقون العفو، وكم هم أنفسهم أصبحوا "مرممين". لقد وطدت تلك اللجنة بإقامة "جسر تاريخي بين ماضي مجتمع فيه شرخ عميق... وبين مستقبل ذلك المجتمع، القائم على الاعتراف بحقوق الإنسان، وعلى الديمقراطية"(٢٣)، الفصل بين ذينك الزمنين، وسمحت بانطلاق حيوية الحياة والفكر في البلد. وبذلك يستطيع الكادر الوطني الجديد في جنوب إفريقيا، عبْر الانقطاع عن جذوره في الفصل العنصري الذي تمثله المبادرة إلى الحديث في إطار اللجنة، وعبر احترام الاختلافات الوطنية، أن يعرف من أين يستمد جذوره، وماذا حصل، ويمكنه بذلك تجنب تكرار التجاوزات. وبذلك تتكون حقيقة فاعلة. إن مصالح أي فرد مميزة بوضوح وتحترمها الدولة؛ ولم يعد ممكناً الخلط بين القانون ومصالح المواطنين الأكثر نفوذاً.

[١٠٨] إن تقرير اللجنة المرتبط في جانب منه بالتصورات التوراتية قُدم رسمياً إلى الأسقف الأنغليكاني لمدينة الكاب ديزموند توتو Dismond Tutu، وللرئيس نيلسون مانديلا Nelson Mandela في أكتوبر "تشرين الأول" ٢٠٠٨م. كتب فيليب – جوزيف سالارز، ناشر نص تقرير اللجنة:

إن تقرير لجنة الحقيقة والمصالحة هو نص يمتاز بحيوية التأسيس السياسي... إنه يقدم، دفعة واحدة، قصته وقصص أولئك الذين يتحدثون، وتتمثل فيه الحكايات، وإرادة العيش معاً. إن المصالحة الجنوب إفريقية تجعل تقليد الإرادة العامة الذي دشنه روسو ينكفئ على نفسه... وإن الحكايات الطويلة والعديدة تظهر ما ينبغي أن تكون

---

(٢٣) حقيقة، مصالحة، إصلاح، بإشراف بربارة كاسان وأوليفيه كايلا وفيليب – جوزيف – سالازار، باريس، منشورات سوي، الجنس البشري، ٢٠٠٤م، تقديم موريس أولاندير، ص ٨.

Vérité, réconciliation, réparation, sous la direction de Barbara Cassin, Olivier Cayla et Philippe - Joseph Salazar, Paris, Éd. Du Seuil, Le genre humain, introduction par Maurice Olender, p. 8.

عليه الطبيعة العامة الحقة للمعرفة السياسية... إن التقرير يؤسس الجمهورية الأخيرة ويصوغها[٢٤].

وبذلك تكون الشرعة الأخلاقية للفصل والتمييز والتناقض المؤسسة في التوراة، والممتدة لدى الإغريق، والتي تلقفها إنسانيو عصر النهضة، وتتمثل اليوم في جنوب إفريقيا هي شرعية واقعية خالصة. الفصل هو حقاً في مبدأ كل حياة خاصة لأي شعور إنساني ولأي إحساس بالمواطنة. وإن الحرية التي يفترضها الفصل والتمييز والتناقض تأتي في مقابل حقيقة يمتلكها الجميع، مجمع عليها، تقرها الجماعة أو الجماعات التي لديها إحساس بالمواطنة، والتي تسهم تلك الحرية في تأسيسها. ويوجد هنا شكل من أشكال الإنسانية التعاونية الذي يكمن في أن ما يجرح واحد يمس الآخر، وفي أن العدل يتطلب أن تكون الامتيازات و النعم موزعة بالتساوي، وفي أن تضارب المصالح ليس مقبولاً. ويمكن للكرامة الفردية لكل كائن بشري وحدها أن تفتح آفاق المستقبل لمشاريع سياسية مشتركة وأن تحبط الفوضى.

وبذلك يمكن أن يتأكد التحول الحيوي للدودة إلى فراشة، إثر عملية ينهدم بموجبها كيانها بوصفها دودة لأنه كيان غير متميز من كيانها بوصفها فراشة.

---

(٢٤) الصفح عن التمييز العنصري، أعمال لجنة الحقيقة والمصالحة، بإشراف ديزموند توتو، الحاصل على جائزة نوبل للسلام، نشر وتقديم فيليب – جوزيف سالازار، باريس، منشورات سوي، النسق الفلسفي، ٢٠٠٤م، ص٧٣.